[الأطرش] تتدلى من السماء مثلما يتدلى خطاف، نعلق عليه أعمارنا كما تعلق القمصان[٢٠] الى اثنين من الطيرة يلتقيان بعد عشرين سنة، لكن حول حبة فقع[٢١].

ان الكتابة عند غسان، في انبعاثها من حركة الجذور، وتبلورها لا تتمرأى ظاهراً وباطنياً إلّا في حالة نقد ذاتية جمعية متواصلة، حالة نقد تتخطى ذاتها تاريخياً وابداعياً... انها كتابة الفرد المنخرط في خضم العملية الثورية، لا المنفصل عنها، بل المنصهر في بوتقتها... وهكذا يجيء أدب غسان متحداً مع عوالمه التي يرسمها.. «لا يفارق... في حركته الفنية واقع الشعب الفلسطيني في حركته النضالية، فتاريخ كتابته هو تاريخ شعبه منذ أيام النضال الأولى مروراً بتجربة المنفى، وانتهاء بأيام النضال الأخيرة، كتب غسان عن تجربة المنفى في انتظارها ويقظتها»[٢٢]. وهي تجربة تبدأ جذورها في رواية «رجال في الشمس» لتتأصل وتعود لتبدأ من جديد في «الأعمى والأطرش»، من «الصور التي تترابط فتساهم بمجموعها في تقديم رمز فني للجحيم الفلسطيني، هذا الجحيم الذي يعادل الواقع الفلسطيني في المنفى والمحاولات الفردية للهروب منه في الخمسينات وبداية الستينات»[٢٣]. الى الصور المستعادة في حركة ثورة تتنامى وتتبلور... هكذا من الثورة في مرحلة تاريخية معينة مستلبة وغير قادرة على سلوك سبيلها، الى الثورة في تسلسلها التاريخي، في صراع الميتافيزيقا معها، وانتصارها على هذه الميتافيزيقا، وعياً للواقعي واستناداً اليه. ان غسان يروي تاريخ فلسطين في خصوصية التجربة الفلسطينية التي لا تفارق خصوصيتها الا لتتاخم كونية التجربة وتثري حركة الثورة العالمية، ولا تخرج من الذاتي الّا لتدخل في عمومية الحالة وروايتها لتجربة شعب. انها تجربة تكشف التفاصيل وترويها في آن معاً، تزاوج الاختزال بتفاصيله، تفاصيل الكتابة وتفاصيل الحياة.

ذكرى الذنب*

تتمدد ذكرى الذنب على سطح النسيج الكتابي الكنفاني، الروائي والقصصي، لتغور من بعد في ثنايا العمل الكتابي، من سطح الكتابة الى غورها، ومن ذنب الفرد الى ذنب الجماعة، تتجاوز الذكرى مع تضافرها مع عقدة الذنب والخطيئة، حالة الاستدعاء من الذاكرة الى تحقق عيني وملموس في الكتابة، وخصوصاً في رواية «عائد الى حيفا».

من قصته القصيرة «شيء لا يذهب»، تبدأ في التشكل ذاكرة تستدعي خطيئة الفرد الفلسطيني في تخليه وانفكاكه عن تحقيق واجبه، ذاكرة تختلي بذاته لترصد ذنبها في تحققه في زمن مضى؛ اذ يلح غسان، في هذه القصة، على الماضي في اثارته لحالتين من التناقض، حالة الحبيبة المناضلة «ليلى»، وحالة حبيبها المتخاذل والذي يمثل وعي الشعب الفلسطيني الناقص وغير المكتمل في تلك الفترة التاريخية «أواخر الخمسينات»... وهي الوعي الذي ينفتح على ذاته في استبصاره للماضي الذي يحل في حاضر الشخصية

---

* أدين هذا العنوان ليوسف ادريس الذي أثار، في دراسته: «غسان كنفاني روائياً» مسألة عقدة الذنب في روايات غسان. وان كنت آخذ المسألة في التحليل باتجاه مغاير.